



د. عبدالله بن إبراهيم العسكر •

فكرة الشورى

قد يستغرب البعض أن فكرة الشورى - وأنا أتحدث عن الفكرة المجردة - هي أساس لكل نظام ديمقراطي ونيابي، فكرة الشورى بدأت صغيرة لكن تاريخ بدايتها يعود إلى أزمنة موعلة في القدم، نشأت فكرة الشورى في المشرق، وهي أقدم من تاريخ الديمقراطية اليونانية. والصدق أن كثيراً من الفلاسفة تجاهلوا هذه المسألة لدرجة أن معظم من كتب عن الفكر النيابي يعود به إلى العصر الهلنستي.

أرى أن هذا ابتسار أملاه الوهج الفكري الذي كان عليه الفكر اليوناني الليبرالي والعقلاني، وأملته سيادة خطاب ثقافي في أوروبا في عصر النهضة، مضاده إرجاع كل الأفكار الجميلة، وربما الجديدة إلى التراث اليوناني. ما أكثر ما أرجع إلى الحضارة اليونانية. أنا هنا لا أقلل من الحضارة أو الفكر اليوناني. لكنني أرى أن كثيراً من الأفكار الجميلة لا تعود بالضرورة إلى الحضارة اليونانية.

قرأت في العهد القديم ما يشير صراحة إلى أن الأمم الغابرة، والرسالات السماوية السابقة لرسالة موسى تتحدث عن الشورى بعبارات مختلفة، وتطرحها بأساليب متعددة، وتتناولها من حيث قبول الناس لها أو معارضتهم. كانت فكرة الشورى فكرة صغيرة كادت أن تتطور، وتنمو لتصبح فكرة كبيرة، يأخذ بها الناس لكنها تعثرت، كما تعثر كثير من الأفكار الجميلة أمام صراع أسميه: الصراع بين الحق والباطل. رأيت أن الصراع الذي تم بين أصحاب الرسالات وبين الشعوب القديمة، ضاعت فيه فكرة الشورى.

لقد عارض الناس الدين الجديد، وحاربوا الأنبياء، بناء على حياة اعتادوها، أو مصالح شعروا أن الأديان تهددها. كانت الأديان تقول بفكرة التشاور في أمور الدين والدنيا. ولم تكن الأديان في بدايتها تحت الناس على قبول الأديان قبولاً أعمى، أو تدعوهم لقبول الدين قبولاً تقليدياً أو قبولاً قسرياً. لكن الذي حصل أن الناس حاربوا الأديان، وبالتالي تلاشت أو كادت فكرة الشورى التي دعت الأديان إليها، وهكذا تخلى أتباع الأديان عن فكرة الشورى.

ثم مر وقت ليس بالقصير أصبح الخطاب التقليدي خطاباً يختزل الحق والباطل في صورة صراع مسلح، ولهذا نشبت حروب كثيرة. بعض تلك الحروب لم تكن تدافع عن حق أو باطل، إنما انطلقت وشبت من أجل مصالح شخصية. وفي خضم تلك الصراعات وندت فكرة الشورى، وحق الناس في التشاور، وفي تقرير أو قبول أو رفض ما يعرض عليهم.

ضعفت فكرة الشورى وهي وليدة صغيرة، ومع هذا عاشت حقبة متعددة ونمت نمواً ضعيفاً، عرفت بعض الشعوب القديمة الشورى أكثر من غيرها على أن الصورة الشورية كانت ضبابية ولم يصلنا ما يشير إلى وضوحها، وأنها انتقلت من مستوى النظرية إلى مستوى التطبيق. ونسي الناس فكرة الشورى واستعاضوا بدلاً عنها بفكرة التغلب. وهي فكرة تطورت إلى درجة أن نعتها فلاسفة ومؤرخو الإسلام بفكرة السلطة المتغلبة العادلة.

عندما نهضت وتطورت الحضارة الهلنستية، كان مما نهض وتطور معها فكرة الشورى، وقامت الشورى فكرة وتطبيقاً على ساقها وتهيأ لها فلاسفة وسياسيون قعروها، ثم وجدت طريقها إلى التطبيق في الصورة التي وصلتنا عن الديمقراطية.

• نائب رئيس لجنة الشؤون الخارجية